

رحلة الى الجنوب:

# مدن الملح تفريق من ليلها الطويل

**الجنوب يعني الكثير. الذاكرة تحفظ لغة الجنوب المصنوعة من أهوار وجاموس وحضارات بائنة وفرق إسلامية وأديان، وفقر نما عبر تاريخ طويل. الجنوب هو البصرة والناصرية والعمارة والسماوة المشمورة على اطراف بادية السعودية. ومن الجنوب توغلت القوات الأميركية والبريطانية لتسقط أعتى نظام شرق أوسطي عرف بقسوته الفاتكة. مدن مثل البصرة والناصرية والزبير والعمارة ليست غريبة عليـ كانت بضعة من الشباب والمراهقة. وها أنا بعد رحلة طويلة في العالم اعود اليها. وأمس ليس كالذي، إذ جرت قصص وتناثرت احلام، ولا مست اشواك الحقائق لب الخيالات. سميت هذا الصباح صباح الجنوب. وحين خرجت بنا السيارة انا وأخي من تخوم بغداد أحسست انني اعود سنوات الى الوراء. نحن ذاهبون الى الناصرية، زوجة اخي من هناك، وحين سألتني مرافقته لجلبها من الأهل وافقت في الحال. هي فرصة لا تعوض بالنسبة لي، فقد زرت الناصرية قبل خمس وعشرين سنة.**

## شاكر الأنباري

الرحلة الى الناصرية عودة الى ايام الشباب والسذاجة في استقرار الغيب. تلك ايضا حقبة سوداء من الحروب والارهاب السياسي والربع الشامل الذي عاشه العراق في عقد الثمانينات. مطلع الشمس يوحي دائما بالجنوب. كان جدي يدعو الريح الهابة من هناك (الشرجي). وكانت عادة ما تكون رطبة محملة بالمطر. مواطنو تلك المناطق يدعون ايضا ب(الشرجية)، وتحريفها يتحول الى (شروي) وهي صفة فيها شتم وتحقير. ما ان وصلنا الصويرة، وهي بلدة صغيرة على اطراف بغداد، حتى لع اسم عبد الكريم قاسم في الذاكرة. انه قائد ثورة ١٤ تموز التي قضت على النظام الملكي وأسست للجمهورية، كما أسست في ذات الوقت لانقلابات متلاحقة عصفت بالعراق. أمثال الشوارع بالمؤامرات والتصفيات والدسائس السياسية، وأصبح العسكر هم المتحكمون بمصير الدولة. عبد الكريم قاسم يتحدر من أب سني وأم شيعية، وحين اغتيل من قبل البعثيين في عام ثلاثة وستين شاعت اسطورة بين العوام ان الروس الصقوا صورته على وجه القمر. الصويرة بلد الزعيم، وكل مدينة او بلدة جنوبية تذكر المرء بشخص ما، فنان او كاتب او روائي او ملحن، حيث عرف ابناء الجنوب بحساستهم في هذه المجالات، خاصة ان الفكر اليساري كان فاشيا في مدن الجنوب، ربما بسبب الفقر المدقع.

الجنوب حاضرة للتمرد التاريخي الذي طبع هذا الجزء من العراق. ابناءه عادة ما يكونون وقودا للحروب، مثلما جرى في الحرب العراقية الإيرانية. لا اعتقد ان بيتا في الجنوب يخلو من قتيل حرب او شهيد مقبرة جماعية او سجين سياسي. قيل ان بعض العوائل ابيد ابناءها جميعا. طريق الجنوب اذن طريق الى الجليظة. عراق اليوم ليس عراق الثمانينات، فليس هناك نقاط تفتيش ولا جيش عراقي ولا حرس جمهوري. الطريق مفتوحة على مديات من الارض اليباب، والحرارة الخائفة، والقرى ذات البيوت الطينية، وأجمات الشوك والطرشاء وهي تنتشر في حقول شاسعة خالية من الزرع. اليوم ما ان يفكر المرء بمدن الجنوب حتى يحضر اسم الحركات الإسلامية، فهي تتحكم بمصير تلك المدن ولها ثقل كبير بين المواطنين. سبب هذا معروف، فما ان انهارت الدولة العراقية، ومع غياب الأحزاب السياسية بعد ضربها داخل العراق بقوة، وتحولها الى احزاب مناف، لم يجد المواطن البسيط حوله سوى المؤسسة الدينية. في المدن السنية وجد الجامع ورجل الدين وشيخ العشيرة، وفي المدن الشيعية المرجعية والحركات الدائرة في فلكها. وهكذا برز اسم حزب الدعوة والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق وجماعة السيد مقتدى الصدر وثأر الله وحزب الله، وعشرات من المنظمات الدينية الصغيرة التي راحت تقيم نظاما الهييا في المدن والبلدات، كل حسب توجهاته. ومع غياب الحزب الشيعي العراقي عن ساحة الفعل السياسي، وحل حزب البعث، وتلاشي الفكر القومي المنتفخ بالشعارات والخطابة، اتجهت القوى الشابة الى شيوخ العشائر والمرجعات الدينية وتم ضبط الأمن وحراسة المنشآت من السرقة. بعض هذه الحركات سرعان ما بدأت ايضا بتطبيق ايدولوجيتها المترنمة فمنعت الخمر وبدأت بمراقبة النساء وفرضت الحجاب وعقدت محاكم لتطبيق ذلك. ثم انتشرت الميليشيات المسلحة وحلت محل الدولة الغائبة طوال الأشهر التسعة تقريبا التي اعقبت سقوط نظام صدام حسين.

مظاهر التفيرات الدراماتيكية لم تظهر على مدن الجنوب، إذ لا يلمس المشاهد اي اثر للاعمار، ورغم ان المدن الجنوبية عموما تتمتع بنسبة الرز والورق في قدور بادية للعيان، تفتقر الى ابسط مقومات النظافة. ولولا فتاني الكولا والميراندا والسفن أب، لكان المسافر يضطر الى شرب مياه مجة عطنة رغم ما بها من تلج. الفرات ودجلة يخترقان هذه الأصقاع لكن نسبة التلوث عالية. جميع المدن العراقية اليوم، بما فيها بغداد، تصب موادها الكيميائية ونفاياتها في هذين النهرين. المياه في دجلة والفرات بلغت مستويات خرافية في هذه السنة، بعد ان رفعت عنهما الحواجز والسدود، فالرئيس كان يخفق مدن الجنوب حتى في الماء، ولهذا قام بحملة وطنية لتجفيف الأهوار، تلك المسطحات المائية التي تغطي اغلب منطقة الجنوب. قام ايضا بمنع زراعة الرز وهو محصول يعتمد عليه الفلاح بشكل اساس، وبدأ العراق يستورد الرز من تايلاند وفيتنام وأميركا. اما السمك فأصبح عملة نادرة. هاجر اثر ذلك مئات الآلاف من الفلاحين الى المدن ليضاف الى المدينة عبء آخر.

في الطريق من الرمادي الى الغرب نحو بغداد العاصمة يرى المرء الجيش الأميركي كل كيلو متر تقريبا، اما كرابيا ثابتة او دوريات سيارة، لكن الطريق من بغداد الى الناصرية يخلو منهم تقريبا. في هذه النواحي يبدو خاليا من القوات الأجنبية. لم تصادف اي اثر لساكر، وهناك فقط مضارز من الجيش العراقي والشرطة، حتى الميليشيات المسلحة اختفت الآن بعد ان تشكلت الدولة العراقية بمؤسساتها الأمنية. ليس من المستغرب ان تعتبر المناطق الجنوبية آمنة للاميركان، فالاضطهاد الذي وقع على هذا الجزء من العراق على يد النظام السابق كان رهيبا. صار المواطن يشعر بنفسه حرا، سواء عبر ممارسة طقوسه او انتمائه الى الحزب الذي يريد، عدا عدم خضوعه لاية سلطة مركزية تفرض عليه توجهاتها. قارنت ما رأيته قبل خمس وعشرين سنة واليوم، في الطريق نفسه، لكنني لم اجد فرقا. لم يتغير شيء، على العكس، اهترأت الشوارع وبادت البيانيات وعثقت السيارات وازدادت الكأبة في الوجوه. الحرية في كل ذرة هواء وزفاق وتعبير وجه. هذا الخراب لم يكن وليد اللحظة، انه نتاج عشرات السنين من الحروب والتمييز الطائفي والمقابر الجماعية والتطهير العرقي الذي مارسه حزب البعث ونظام صدام حسين. توج ذلك ايضا بعشر سنوات من الحصار الدولي، عانى منه المواطن البسيط فقط. هذا الجزء من الوطن لم يفقد اي امتيازات اثر سقوط النظام، على العكس لم يربح سوى حريته وان جاءت متوجة بالخراب والفقر والتخلف. لم يفقدوا سوى اغلالهم على حد تعبير ماركس.

للناصرية عادة وقع ضخم في الذهن العراقي. هناك عشرات الأغاني تذكر مدينة الناصرية، والافق مغرب نبيخ على ارض سخية تنمو فيها اشجار الطرفاء والطريع، وعلى حين غرة تنتصب نخيلات بعيدة عجاف اشبه بشاهد على خراب ارض وبلد وحضارات. من اين انبتت ظل حمورابي وكيف ساح لججامش بحثا عن عشبة الخلود؟ واننا اين نقيم ومن قتل تموزي؟ وعشترار تندب حبيها لينهض من العالم السفلي. رائحة السمك والملح، والطاعم على جانبي الطريق لا تنتمي الى عصرنا. تقدم وجبات من اللحم المشوي

وعلى حافاتها تقع الأهوار المشهورة بالببط الري والاساطير وحكايات الأمراء الاقطاعيين في الزمن الغابر. انها المشحوف السومري والسمك الجفف والقصب والبردي والخنازير الرية. تعتبر الأهوار محمية طبيعية ذات روح سياحية وجمالية تستلهم الشعر والخيال والحكي. مظفر النواب كتب قصائد عديدة عن فلاح الهور دائما، وكذلك استلهمه سعدي يوسف في قصائد ماضية. اما الصحافي شمران الياصري المعروف بين العراقيين بأبو كاطع، فكتب رواية من ثلاثة اجزاء عن واقع الأهوار. والناصرية ايضا بلد الشاعر الجنوبي الحبوبي، وله تمثال اليوم في ساحة الحبوبي وسط الناصرية. عاش في بداية القرن العشرين وشارك في ثورة العشرين وكتب قصائد وطنية تحفظها الاجيال.

الفريق ان مدن الجنوب لم تطلها يد الاعمار حتى اللحظة، رغم انها تتمتع بالأمان ولا تنقطع فيها الكهرباء مثل باقي مدن العراق، ومن غرائب هذا الشعب ايضا، ان المواطنين هنا يخرجون في تظاهرات تطالب بتغيير هذا المحافظ وذاك، لكنها لا تخرج للمطالبة بتبليط الشوارع وترميم المستشفيات والمدارس والمنشآت الحكومية، وكان ثقل الأيديولوجيا اكبر من الحياة نفسها. لم ار امرأة سافرة في اغلب المدن التي توقفنا فيها وكذلك في مدينة الناصرية، العباءة العراقية السوداء المعروفة هي الفاشية كلباس للنساء هنا، بالنسبة للفلاحات والقرويات يتحولن عبر هذا الزي الأسود الى غريان بشرية ذات وجوه كالحجة. هذه ليست الناصرية التي اعرفها. مدينة شبح. خارجة من انقاض التاريخ، فالأبنية كالحجة، والأشجار ذابلة، والشوارع امتلات بالحضر، والكورنيش الجميل الممتد على ضفتي الفرات اصبح اطلالا. كانت التماثيل التي توسعت ذات يوم حانات النهر تركت مهجورة وسط ارض شاحبة. امتلات الضفاف بالنفايات. الرجل المنتصب وسط مشحوفه السومري كان ينظر الى امواج الفرات يحسرة. اخفت الجميلات من الشوارع وغاب سمار الليل بأغانهم ونشواتهم ومولاتهم الجنوبية المستوحاة من فينارات اوروك وبابل وآشور. الخمر حرمت في الناصرية تماما ودار الحديث عن اشخاص قتلوا ما ان مارسوا مهنة بيع الخمر. على الكورنيش وحده وجدت ذات يوم كما اخبرني اخ زوجة اخي المتحدث اللبق، اكثر من عشرين حانة. تفتح ابوابها منذ الظهيرة ولا تغلق الا في ساعة متأخرة من الليل. نتيجة للعزلة والتهميش وانقطاع عن العالم ضربت اغلب مدن العراق موجة تطهيرية تأخذ من الدين قشوره حسب تقاليد العزلة سماها اخي والانسان العادي لا يجد

لها بديلا. هو لم ير شيئا في حياته سوى القهر والذل والموت. الموت اليف بما فيه الكفاية، ومطلب احيانا في دنيا الشقاء. في ساحة الحبوبي التي يحتل وسطها تمثال الشاعر، كان ثمة بارات وباعة خمور وكافتيات تضفي نكهة على المدينة، لكنها اليوم تحولت الى محال مهترئة وباعة عصير فيها الشباب العاطل عن العمل حتى الواحدة ليلا. بعد سقوط النظام انتشرت ظاهرة الصور، فأينما يدير المرء وجهه يلاقى صورا لرجال دين، وشعارات ولافتات. اليوم بدأت الصور تخفي وندرت اللافتات، وغاب المسلحون المدنيون. بدأت الشرطة العراقية تمسك النظام بيديها، ومنعت اي مظاهر مسلحة من قبل الحركات الدينية. كما ان المواطنين هنا بدأوا ينصرفون قليلا قليلا عن الحركات الدينية، ويتجهون الى الدولة، وأصبحت الوظيفة مرغوبة اكثر من ذي قبل. اول مرة في تاريخ العراق يصبح الشرطي محبوبا من قبل المواطن العادي. اصبح عنوان أمان ومظهرا من مظاهر العهد الجديد.

كل فرد هنا في الناصرية له قصة مع النظام السابق، اذ كان يستقدم مدرء الأمن والخبايرت والفروع الحزبية من المناطق السنية الوالدية نسبيا، ويطلق أيديهم في حكم المدن. هؤلاء كانوا يجلبون معهم جيوشا من الموالين والمعهديين والتجار لانجاز اعمال المدن، ويشاركونهم احيانا في الغنائم. خسرت المناطق الغربية من العراق امتيازاتها في العهد الجديد. المال والسلطة. لم يربح الجنوب المال الا انه اخفض من هيمنة السلطة التي لا تحبه. كان لأهل الجنوب المقابر الجماعية والقتل والتعذيب والتهميش لهذا لم يأسفوا على زوال الطاغية وعهده البائد. بعد انتفاضة التسعينيات ومشاركة ملايين العراقيين في الثورة ضد النظام، كتبت صحيفة الثورة التي كان يصدرها حزب البعث ان أهل الجنوب اسلمهم من الهند، وليسوا عراقيين وهم عديمو شرف ونخوة، وعرضت الفضائيات بعد سقوط صدام صورا مرعبة لعلي حسن المجيد ومحمد حمزة الزبيدي والمسؤولين الكبار وهم يركلون المواطنين بأحذيتهم ويوجهون مسدساتهم الى الرؤوس. سموهم الفوغاء، ولا يزال أهل الناصرية يتندرون على

التمسية. المستشفى العام اضخم بناية في المدينة، سمي سابقا مستشفى صدام. اليوم وتاكيدا لديموقراطية الوضع اصبحوا يسمونه مستشفى الياور، نسبة الى غازي عجيل الياور رئيس جمهورية العراق الجديد. الفرق ان التسمية السابقة فرضت بأمر سلطوي وتسمية اليوم جاءت من الشعب تندرا ونكاية ربما. ورغم الفقر وقلة فرص العمل الا ان اغلب الناس متفائلون، فهم حسب رأيهم يعيشون حياة ثانية. من لم يمت في الحروب المتعاقبة قتل في الانتفاضة الشعبانية، ومن لم يقتل على ايدي أجهزة الأمن وتشرذد في المنفى رجع الى أهله وهو يسمع قصصا اغرب من الخيال، ان ايام الحصار والاستعدادات الأمنية والعقوبات الجماعية وقصص ثوار الأهوار الذين شاركوا قوات الحلفاء في الاستيلاء على المدن وادارتها. الوحدة الإيطالية العاملة في الناصرية منكفئة في قاعدتها، فلا حاجة لها في المدينة. والمدينة ليلا سابعة في النور، وهو امر نادر الحدوث حتى في بغداد العاصمة. حافظ اهالي الناصرية على محطة الكهرباء العملاقة أثناء سقوط النظام، وحموها من التخريب. المحطة تشتغل بالغاز السائل وهي توفر حاجة المدينة وتفيض. قبل اسبوع حاولت السلطة المركزية اقتسام الكهرباء مع المحافظات الوسطى لكن أهل المدينة عارضوا ذلك. خرجت تظاهرات ترفض الفكرة من أساسها. يقول الأهالي لم نحافظ المدن الثانية على خطوط الكهرباء مثلما فعلنا؟ فعلا، تم نهب مئات الكيلومترات من اسلاك الضغط العالي في مدن الرمادي وسامراء وتكريت، اذ كانت تصهر من قبل عصابات النهب وتباع في الأسواق المجاورة. لهذا حين خرجنا الى مدينة الناصرية في الساعة الواحدة ليلا كانت أضواء المصابيح تنعكس على مويجات الفرات لتشكل اعمدة من الزخارف الرائعة. عدم انقطاع الكهرباء لم يخف المنظر الكئيب لهذه المدينة في ليل الصيف. ثمة حزن في الهواء، وثمة قصص تروى عن الذين غابوا وانقضت أخبارهم ومحمد حمزة الزبيدي كان قائما على ضفاف الفرات، وصورة للسيد مقتدى الصدر تحتل السواجسة. خلال المواجهات الدامية التي

حصلت بين انصار الصدر وقوات الائتلاف والشرطة العراقية في كربلاء والنجف والثورة والبصرة والناصرية، قامت القوات الإيطالية بتفجير المقر، لكن اعيد بناؤه بعد يوم واحد فقط. حركة مقتدى الصدر الآن اصبح حالها حال الحركات الدينية والسياسية الأخرى. نقلت السلطة الى الحكومة العراقية الجديدة غير كثيرا من المفاهيم في العراق. لم يشأ السيد مقتدى الصدر من جيش المهدي ان يدخلوا في مواجهات مع الحرس الوطني العراقي او الشرطة، عكس الجماعات المتطرفة المنتشرة في الغرب والوسط هدوء الجنوب النسبي سهل تنامي السلطة العراقية، وفي الوقت نفسه خفض كثيرا من تواجد القوات الأجنبية. هذا يصعب فهمه من قبل انصار النظام المخلوع والمتطرفين الوهابيين والقادمين من خلف الحدود. على طول الطريق الممتد بين بغداد والناصرية وهو يبلغ اكثر من اربعمئة كيلو متر، لم تلج اي قافلة للقوات الأجنبية، لا في الذهاب ولا في الياور. المواطن هنا يحس بذلك، لهذا فهو متفائل جدا في العهد الجديد. ان مظهر البؤس الطاغية على مدن الجنوب يجعل الانسان يستعر غيظا على النظام السابق، اذ لم تضف ولا بلاطة واحدة خلال خمس وعشرين سنة على تلك المدن. ما كان جديا اهترأ دون ان يرتفع جديدي في الأفق. طريق العودة لا يشبه طريق الذهاب، فالفضول الذي كان يستولي علي قبل التوغل جنوبا خلف وراءه خيبة شاسعة. مدن تراجعت وسط الغبار وسراب السيخ والملح، لتغور ثانية في لجة الجهل والتخلف، منغمرة بسراب حرارة تبلغ الخمسين درجة مئوية. نساء الممالج غريان جاشمة على حواشي الطرق الرعاة منشفلون مع الحمير والجاموس وأشواك الأرض. الأمكنة التي رأيتهما قبل ربع قرن خلفت وراءها قصصا مسأوية فقط. مدينة الناصرية ليست سوى نموذج للجنوب، فلا شيء واضحا في الأفق. الترميم هنا لم يعد ينفج، لكن البناء صعب جدا. انظار الجميع تتطلع الى بغداد، فالعركة هناك، معركة دموية ومتعددة الأوجه، لكنها ستعيد العراق الى النهاية الى قلب العالم، كما كان دائما.

